سُورَةُ الأَحْقَافِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٢]

القراءات: «لينذر» قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب والبزي بخلف عنه بتاء الخطاب، وقرأ الباقون بياء الغيب وهو الوجه الثاني للبزي.

التوجيه: قال الرازي: قرئ «لينذر» بالتاء لكثرة ما ورد من هذا المعنى بالمخاطبة كقوله تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٢]، وقرئ بالياء لتقدم ذكر الكتاب فأسند الإنذار إلى الكتاب كما أسند إلى الرسول.

وقال ابن عاشور: وقرأ نافع وابن عامر والبزي عن ابن كثير ويعقوب «لتنذر» بالتاء خطابًا للرسول ﷺ فيحصل وصف الرسول ﷺ بأنه منذر ووصف كتابه بأنه «بشرى» وفيه احتباك وقرأه الجمهور بالياء على أنه خبر عن الكتاب فإسناد الإنذار إلى الكتاب مجاز عقلي.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف: ١٥]

القراءات: «إحسانًا» قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر «إحسانًا» بهمزة مكسورة قبل الحاء ثم إسكان الحاء وفتح السين وألف بعدها، وقرأ الباقون: «حُسنًا» بحذف الهمزة وضم الحاء وإسكان السين وحذف الألف.

«كُرهًا» قرأ ابن ذكوان وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر وهشام بخلف عنه بضم الكاف والباقون بفتحها وهو الوجه الثاني لهشام. «وفصاله»: قرأ يعقوب بفتح الفاء وإسكان الصاد بلا ألف والباقون بكسر الفاء وفتح الصاد وألف بعدها.

التوجيه: قال الرازي: واعلم أن الإحسان خلاف الإساءة والحسن خلاف القبيح. فمن قرأ «إحسانًا» فحجته قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. والمعنى أمرناه بأن يوصل إليهما إحسانًا وحجة القراءة الثانية قوله تعالى في العنكبوت ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ ولم يختلفوا فيه. والمراد أيضًا أنّا أمرناه بأن يوصل إليهما فعلًا حسنًا إلا أنه سمَّى ذلك الفعل الحَسَن بالحُسْن على سبيل المبالغة كما يقال هذا الرجل عِلْم وكَرَمٌ. وانتصب حسنًا على المصدر لأن معنى «ووصينا الإنسان بوالديه» أمرناه أن يحسن إليهما إحسانًا ثم قال تعالى ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وفيه مسائل: (المسألة الأولى)، قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي «كُرهًا» بضم الكاف والباقون بفتحها قيل هما لغتان: مثل الضَّعف والضُّعف والفَقر والفُقر ومن غير المصادر: الدَّف والدُّف والشَّهد والشُّهد.

قال الواحدي: «الكَره» مصدر من كرهت الشيء أكرهه و«الكُره» الاسم كأنه الشيء المكروه؛ قال تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فهذا بالضم وقال ﴿أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ [النساء: ١٩]، فهذا في موضع الحال ولم تُقرأ الثانية بغير الفتح، فما كان مصدرًا أو في موضع الحال فالفتح فيه أحسن، وما كان اسمًا نحو ذهبت به على كُره، كان الضم فيه أحسن.

فائدة: قال أبو حيان: قيل ضمن «ووصينا» معنى ألزمنا فيتعدى لاثنين فانتصب حسنًا وإحسانًا على المفعول الثاني لوصينا، وقيل: التقدير ذا حسن أو ذا إحسان ويجوز أن يكون حسنًا بمعنى إحسان فيكون مفعولًا له أي وصيناه بهما لإحساننا إليهما فيكون الإحسان من الله تعالى وقيل: النصب على المصدر على تضمين معنى أحسنّا بالوصية للإنسان بوالديه إحسانًا.

وقال أبو حيان أيضًا: قرئ «كرهًا» بضم الكاف وفتحها، والضم والفتح لغتان بمعنى واحد كالعُقر والعَقر. وقالت فرقة: بالضم المشقة وبالفتح الغلبة والقهر وضعفوا

قراءة الفتح وقال بعضهم: لو كان بالفتح لرمت به عن نفسها! فمعناه: القهر والغلبة. انتهى وهذا ليس بشيء إذ قراءة الفتح في السبعة المتواترة وقال أبو حاتم: القراءة بفتح الكاف لا تحسن لأن الكره بالفتح: القهر والغلبة. انتهى، وكان أبو حاتم يطعن في بعض القرآن بما لا علم له به جسارة منه عفا الله عنه وانتصابهما على الحال من ضمير الفاعل أي حملته ذات كره أو على أنه نعت لمصدر محذوف أي حملًا ذا كُره.

وقال ابن جرير: واختلفت القراء في قراءة قوله «وَفِصَالُهُ» فقرأ ذلك عامة قراء الأمصار غير الحسن البصري: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ بمعنى: فاصلته أمه فصالًا ومفاصلة وذُكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤه: «وَحَمْلُهُ وَفَصْلُهُ» بفتح الفاء بغير ألف بمعنى وفصل أمه أباه والصواب من القول في ذلك عندنا ما عليه قراء الأمصار لإجماع الحجة من القراء عليه وشذوذ ما خالفه.

قلتُ: قد قرأ بقراءة الحسن البصري يعقوب، وهي قراءة متواترة وليست بشاذة، ومعناها صحيح، فلا وجه لردّها.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأحقاف: ١٦].

القراءات: «نتقبل، أحسن، نتجاوز» قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وأبو جعفر ويعقوب بياء مضمومة في الفعلين. «وأحسن» بالرفع، وقرأ الباقون بنون مفتوحة «وأحسن» بالنصب.

التوجيه: قراءة النون تفيد عظيم فضل الله في قبول أعمال الصالحين، وأنه يضاعفها لهم، وكذا عظيم منّته في تجاوزه عن سيئاتهم مهما كبرت طالما تابوا وأنابوا، وقراءة الياء على البناء للمفعول تفيد التعميم، فالله يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم جميعًا

وكذلك الكون كله يحبهم ويفرح بحسناتهم ويرضى عنهم من أجلها ويفرح بتوبتهم، فهم مقبولون عند الله وعند خلقه، ومتجاوز عنهم كذلك عند الله وعند خلقه.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٩]

القراءات: «ليوفيهم» قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب وهشام بخلف عنه بالياء وقرأ الباقون بنون العظمة على الالتفات وهو الوجه الثاني لهشام.

التوجيه: قراءة النون «نون العظمة» تفيد عظيم فضل الله وإحسانه إليهم حيث يوفي المحسنين أجورهم إحسانًا منه وفضلًا، كما تفيد عظيم قدرته وحكمته حيث يوفي الظالمين أعمالهم عدلًا منه وحكمة، كما تفيد عظيم شأن الجنّة والنار، وقراءة الياء تفيد تعيين الفاعل فهو الله الكريم الحكم العدل، فهي تدل على البشارة للمؤمنين وعلى أنه لن يظلم أحدًا شيئًا ولو كان كافرًا، والله أعلم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأحقاف: ٢٠]

القراءات: «أأذهبتم»: ابن كثير وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب كلٌّ على أصله من التسهيل وعدمه والإدخال وعدمه، وقرأ الباقون «أذهبتم».

التوجيه: قال القرطبي: وقرأ الحسن وأبو العالية ويعقوب وابن كثير «أَأَذْهَبْتُمْ» بهمزتين مخففتين واختاره أبو حاتم وقرأ أبو حيوة وهشام «آذهبتم» بهمزة واحدة مطولة على الاستفهام وقرأ الباقون بهمزة واحدة من غير مد على الخبر وكلها لغات فصيحة ومعناها التوبيخ والعرب توبخ بالاستفهام وبغير الاستفهام، واختار أبو عبيد ترك الاستفهام لأنه قراءة أكثر أئمة السبعة: نافع وعاصم وأبي عمرو وحمزة والكسائي. وترك الاستفهام أحسن لأن إثباته يوهم أنهم لم يفعلوا ذلك كما تقول: أنا ظلمتك؟ تريد أنا لم أظلمك، وإثباته حسن أيضًا يقول القائل: ذهبت فعلت كذا يُوَبِّخ ويقول: أذهبت فعلت! كلٌّ ذلك جائز.

وقال أبو حيان: وقرأ الجمهور: أذهبتم على الخبر أي فيقال لهم: أذهبتم ولذلك حسنت الفاء في قوله: (فاليوم تجزون). وقرأ قتادة ومجاهد وابن وثاب وأبو جعفر والأعرج وابن كثير بهمزة بعدها مدة مطولة وابن عامر بهمزتين، وهذا الاستفهام هو على معنى التوبيخ والتقرير فهو خبر في المعنى فلذلك حسنت الفاء، ولو كان استفهامًا محضًا لم تدخل الفاء، والطيبات هنا المستلذات من المآكل والمشارب والملابس والمفارش والمراكب والمواطئ وغير ذلك مما يتنعم به أهل الرفاهية.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ ﴾ [الأحقاف: ٢٣]

القراءات: «وأبلغكم» قرأ أبو عمرو بسكون الباء وتخفيف اللام وقرأ الباقون بفتح الباء وتشديد اللام.

المعنى: قال في «لسان العرب»: أبلغه إبلاغًا وبلَّغه تبليغًا أي قد انتهى فيه وأنعم، والإبلاغ: الإيصال وكذلك التبليغ، والبلاغ: الكفاية، وبالغ يبالغ مبالغة وبلاغًا: إذا اجتهد في الأمر.

التوجيه: قال ابن عاشور: قرئ بتشديد اللام وبتخفيفها؛ يقال بلّغ الخبر بالتضعيف وأبلغه بالهمز، إذا جعله بالغًا.

قلتُ: القراءتان تدلان على أنّ رسول الله (هود) عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أبلَغ رسالة ربه وبالغ في ذلك واجتهد حتى أوصل مراد ربه إلى قومه، ففي ما أنذرهم به كفاية لو كانوا يعقلون إلّا أنّ قراءة التخفيف «أبلِغكم» تدل على أصل المعنى، وقراءة «أبلِّغكم» بالتشديد تدل على وجود المبالغة والاجتهاد في ذلك بما لا مزيد عليه، والله أعلم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٢٥]

القراءات: «لا يرى إلا مساكنهم» قرأ عاصم وحمزة ويعقوب وخلف العاشر بياء مضمومة ومساكنهم بالرفع وقرأ الباقون بتاء فوقية مفتوحة «ومساكنهم»: بالنصب.

التوجيه: قراءة «لا ترى» على أنه خطاب لرسول الله ﷺ أو خطاب لكل سامع، وفيه مزيد التذكير والتنبيه بتوجيه الخطاب للمراد وعظه وتذكيره، وإذا قلنا: الخطاب لرسول الله، فالمراد تسليته وتصبيره على إيذاء المشركين له ولأصحابه، وقراءة الياء على البناء لنائب الفاعل تفيد بيان هول ما أصابهم وتعميم إهلاكهم وعموم ظهوره لكل راءٍ، فهلاكهم قد اتضح لكل أحد.

فائدة: قال ابن عاشور: قرئ «لا يُرى» بضم الياء مبنيًا للمجهول، وبرفع «مساكنهم»، ولم يقل «لا تُرى» أجرى على الجمع صيغة الغائب المفرد لأنّ الجمع مستثنى بـ «إلّا» وهي فاصلة بينه وبين الفعل. **قلتُ:** قراءة «لا تُرى» بضم التاء شاذة. **وقال ابن جرير:** واختلفت القراء في قراءة قوله ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ فقرأ ذلك عامة قراءة المدينة والبصرة «لا تَرى إلَّا مَسَاكِنَهم» بالتاء نصبًا بمعنى فأصبحوا لا ترى أنت يا محمد إلا مساكنهم وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة «لا يُرَى إلَّا مَساكِنُهُمْ» بالياء في «يُرى» ورفع المساكن بمعنى: ما وصفت قبل أنه لا يرى في بلادهم شيء إلا مساكنهم وروى الحسن البصري «لا تُرَى» بالتاء وبأي القراءتين اللتين ذكرت من قراءة أهل المدينة والكوفة قرأ ذلك القارئ فمصيب وهو القراءة برفع المساكن إذا قُرئ قوله «يُرَى» بالياء وضمها وبنصب المساكن إذا قُرئ قوله «تَرَى» بالتاء وفتحها وأما التي حُكيت عن الحسن فهي قبيحة في العربية وإن كانت جائزة وإنما قبحت لأن العرب تذكِّر الأفعال التي قبل إلّا وإن كانت الأسماء التي بعدها أسماء إناث فتقول ما قام إلا أختك، وما جاءني إلا جاريتك ولا يكادون يقولون: ما جاءتني إلا جاريتك وذلك أن المحذوف قبل إلّا أحد أو شيء واحد أو شيء يذكّر فعلها العرب وإن عُني بها المؤنث فتقول إن جاءك منهن أحد فأكرمه ولا يقولون: إن جاءتك وكان الفراء يجيزها على الاستكراه ويذكر أن المفضل أنشده:

وَنَارُنَا لَمْ تُرَ نَارًا مِثْلُهَا ... قَدْ عَلِمْتَ ذاكَ مَعَدَ أكْرَمَا

فأنث فعل مثل لأنه للنار؛ قال وأجود الكلام أن تقول: ما رؤى مثلها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ [الأحقاف: ٣٣]

القراءات: قرأ يعقوب «يقدر» وقرأ الباقون: «بقادر».

التوجيه: قال أبو حيان: وقرأ الجمهور بقادر: اسم فاعل والباء زائدة في خبر أن وحسن زيادتها كون ما قبلها في حيز النفي وقد أجاز الزجاج: ما ظننت أن أحداً بقائم قياسًا على هذا والصحيح قصر ذلك على السماع فكأنه في الآية قال: أليس الله بقادر؟ ألا ترى كيف جاء ببلى مقررًا لإحياء الموتى لا لرؤيتهم؟

وقال القرطبي: وقرأ ابن مسعود والأعرج والجحدري وابن أبي إسحاق ويعقوب «يَقدر» واختاره أبو حاتم؛ لأن دخول الباء في خبر «أن» قبيح واختار أبو عبيد قراءة العامة لأنها في قراءة عبد الله ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ ﴾ بغير باء، والله أعلم.

قلتُ: إذا وردت القراءة المتواترة بوجهٍ، فلا يصح أن يُقال عنه قبيح، نعم قد يكون غير الأفصح، ولكنه وجهٌ فصيحٌ، لغةً، والقرآن قد نزل على أحرفٍ سبعة موافقًا للهجات القبائل العربية ووجوه الكلام عندهم حتى يسهل عليهم حفظه.

وقال ابن جرير: اختلفت القراء في قراءة قوله «بقادر» فقرأ ذلك عامة قراء الأمصار، عدا أبي إسحاق، والجحدري والأعرج «بقادر» وهي الصحيحة عندنا لإجماع قراء الأمصار عليها. وأما الآخرون الذين ذكرتهم فإنهم فيما ذكر عنهم كانوا يقرءون ذلك «يقدر» بالياء. وقد ذكر أنه في قراءة عبد الله بن مسعود «أنَّ الله الذي خلق السماوات الأرض قادر» بغير باء، ففي ذلك حجة لمن قرأه «بقادر» بالباء والألف.

تنبيه: قوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس: ٨١]. قد قرأه رُويس «يقدرُ»، وقرأه الباقون «بقادر» ولا إشكال هاهنا عند أحدٍ في قراءة «بقادر» بالباء لمجيئها خبرًا لـ «ليس».